إضاءة

طبّقت الباحثة الفرنسية منهجًا صارمًا يتمثّل في إعادة قراءة المفردات القرآنيّة الأصليّة على ضوء «الأنثروبولوجيا التاريخيّة» التي تُلحق المعاني بمراجعها الأصليّة، لكنّ تأويلها المنهجي لمقولات القرآن يُفرغها من كلّ مضمونٍ متعالٍ

نجم الدين خلف الله

دخلت جاكلين الشابّي (1943)، منذُ الرابعة عشْر من عمرها، غمارَ اللسان العربيّ، وتتلمذت لاحقًا على يد كبار المستشرقين الذين ملأوا الساحة الفرنسيّة بأعمالهم طيلة النّصف الأول من القرن العشرين، مثل ريجيس بلاشير وكلود كوهان وشارل بيلا وغيرهم، إلى أنْ أصبَحت اليومَ من بين أشهر المُستعربين. فقد تدرّجت في سلّم المعارف حتى فزرت إعداد أطروحة دكتوراه حول عبد القادر الجيلاني (1077-1166)، دفين بغداد، والأفكار الاجتماعيّة والسياسيّة في القرن الحادي عشر، تحت إشراف المؤرّخ كلود كوهان، حيث برهنت أنّ الرّجل لم يكن صوفيًا فحسب، كما هو شائعٌ في التمثلات الشعبيّة السائدة، بل هو أقرب إلى صرامة الفقه وترسيخ المذهب السنّي. واستنتجت من هذا البحث قناعةً ستصاحبُها حتّى اليوم: وجود شرخ عميق بين المعتقدات الجماعيّة المُتخيّلة، والحقائق العلميّة الثابتة، ولا سيما في مجال الأديان. ثم أعدّت أطروحة دكتوراه. دولة حول «غرب الجزيرة العربية في بداية القرن السابع»، تحت إشراف جمال الدين بن الشيخ، وناقشتها سنة 1992.

وبعد ذلك، دعتها تساؤلاتُها إلى التّخصص في تاريخ الإسلام المُبكّر، أيْ: بدايات تشكّله دينًا ونسقًا لاهوتيًا وفقهيًا، من خلال إجراء قراءة نقديّة للمصادر الأولى وظروف تَدوينها. وانتجت في هذا المضمار عدّة كتب، منها: «ربُّ القبائل» (1997)، «القرآن المُفسّر» (2007)، و«أركان الإسلام الثلاثة» (2017)، إلى جانب «لقد أضعنا ادم: الخلق في القرآن» (2019) و«إله الإنجيل، إله القرآن» (2020). في هذه الكُتب، طبّقت الباحثة الفرنسية منْهجًا صارمًا يتمثّل في إعادة قراءة المفردات القرآنيّة الأصليّة على ضوء «الأنثروبولوجيا التاريخيّة» التي تُلحق المعاني بمراجعها الأصليّة الناشئة ضمن الإطار القَبليّ الخاص بشبه الجزيرة العربيّة في القرن السابع وما قبله. ولذلك، تَردّ كلّ مُفردة قرآنيّة إلى دلالتها الأولى التي تُرجّح، بالاعتماد على أعمال المفسّرين واللغويين العرب مثل الطبري وابن منظور، أنّ مُعاصري الخطاب القرآني كانوا قد فهموها على ذلك النحو، مستعيدةً كلّ التمثّلات الاجتماعيّة التي كانت سائدةً في بيئة الحجاز، حيث ظهرت هذه المفردات والمعاني.

وعلى مرّ السّنين، جوّدت الباحثة منهجها واستطاعت أن تثبتَ أنّ النّسيج المعجمي - المفهومي للقرآن يمكن ردّه إلى ما كانَ سائدًا في بيئة الجزيرة العربيّة من عقائد ورؤى وممارسات اجتماعيّة وثقافيّة، تُظهر الوَجه الحضاري والثقافيّ للكلمات وتؤكّد بذلك أنّ القرآنَ عربيُّ الأصل تمامًا، في ردٍّ قاطع على مدارس الاستشراق الأخرى التي تزعم أنّه منقول، في كُلّيّته، من نصوص سريانيّة أو يهوديّة حرّرها رهبانٌ عاشوا في منطقة الشام، بمعنى أنه اختلاقٌ بَغديّ. ومن جهة ثانية، تؤكّد جاكلين الشابّي أنّ القرآن قد «استعادَ» أو «اقترَضَ» العديد من القصص والشخصيّات والرموز التي تعود إلى الأديان السابقة التي كانت منتشرةً في شبه الجزيرة العربية زمنَ الرّسالة المحمديّة، وأخضعها إلى منطقه الداخليّ، مما يعني ضمنًا أنّ النصّ استدعاها في مسعاه إلى بناء تحالفات قبليّة كانَ النّبي يحتاجها للاعتراف بسُلطته سيّدًا على القبائل. وبذلك، عملت الشابّي على ربط الصلة بين الدلالات القرآنيّة والمحيط الصّحراوي، وأوّلت، على ضوئه، ما ورد في القرآن من صوَر ووعود ومَجازات؛ فالجنّان التي تجري من تحتها الأنهار ليست سوى الواحات الخضراء التي كانت تتوسّط صحراء الجزيرة، والخلود الذي وُعد به أهل الجنّة ليس إلّا صفاتِ القوّة الجسديّة التي تُميّز فحول الرجال.

قد تسحر هذه الشبكة التأويليّة بجاذبيّتها ولكنّها، عند التأمّل، لا تَنشبُ أن تَتهافت؛ فلا نَدري لماذا ترفض الباحثة المعاني الثواني التي حفّت بالكلمات القرآنيّة، حين نزولها، فحمّلتها نحو الآفاق الجديدة التي تمثّل الكون الرمزي للإسلام. فمفردة «شريعة»، مثلاً، التي تصرّ الشابّي على أنها تعني: «الطّريق المؤدّية إلى مَورد الماء». وهذا صحيح وسَبقَ وأن ذَكره الرّاغب الأصبهاني في «مفردات القرآن». لم ترد في القرآن بمعناها الأصليّ، بل بمعنى ثانٍ، يتّصل بالأوامر والنواهي الإلهيّة التي مُثّل لها باستعارة الطريق أو المنهاج، ولئن شاركناها الرأي بأنّ المفهوم لا يحيل على البناءات الفقهيّة المعقّدة وتفاريعها النظريّة بعد تشكّل المذاهب، فإننا لا نرى كيف يُتّخذ هذا التطوّر الدلالي اللاحق ذريعةً لإقصاء الدلالة الروحيّة التي كانت للمفردة ضمنَ نسيج القرآن.

ومن جهة ثانية، غالبًا ما تُرجع الباحثة بعض الكلمات التي لا تتماشى مع نظريتها الهادفة لنزع قداسة القرآن، إلى أصول سامية كالسريانيّة والعبرية والنبطيّة... والمعروف أنّ المصادرة الضمنيّة لهذا التوجه هي إثبات أنّ النص القرآني كَتَبه «محرّرون» كُثُر، في الحقبة الأمويّة، من أجل إضفاء شرعيّة دينيّة على مشروعهم الإمبراطوري: بناء خلافة سياسيّة تحكم المناطق المتوارثة عن الحكم الساساني بارض فارس والبيزنطي في الشام وأسيا الوسطى، فضلاً عن المغرب العربيّ وإسبانيا. كما تصرّ الباحثة على أن ثيمات القرآن، أكانت مُتحررةً من الجزيرة العربيّة أو مُستوردة من الثقافات المجاورة، هي مجرّد انعكاس لإرادة بشريّة تهدف إلى التحكّم في القبائل البدويّة والحضريّة، ولذلك أسمت كتابها الأول: «ربّ القبائل»، في إشارة إلى ترجمة «ربّ العالمين» الذي يستند إليه النبي في تشييد شرعيته، ثم خلفاء بني أميّة كمرجع لدولتهم، مهملة الجوانب الروحيّة والأخلاقية والأخروية (Eschatologique) التي وَرَدت في القرآن، أو مؤوّلةً إيّاها على أساس أنها تضخيم، وفي أحسن الحالات، تَنبيل للمفاهيم القبليّة. فالإيمان مجرّد «تحالف عشائريّ»، والزّكاة «عطاء» بين أفرادها لشراء ذِممهم والحفاظ على ولائهم، والحجّ مجرّد استعادة للشعائر الجاهليّة... وهكذا في تأويل منهجي لمقولات القرآن يُفرّغها من كلّ مضمونٍ متعالٍ.

وهكذا، تَبني الباحثة نظريّتها على موضوع صنعتُه بذاتها، واسقطتْه على المصادر، حتى صار شبكة تأويلية تَتحكم في قراءتها، عوض أن تتحكّم هي فيها، فتحوّلت من التاريخ إلى الإيديولوجيا، تحذف ما تشاء، وتتْرك ما يقوّي بناءها النظري وإنْ بتكلّف.

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

جاكلين الشابي

حدود نظرية

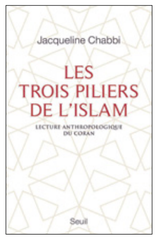

ككثير من المشتغلين بدراسات القرآن عبر منظورات العلوم الإنسانية الحديثة (محمد اركون، هشام جعيّط، الفة يوسف...)، تقدّم جاكلين الشابي قراءة حول الإسلام المبكر، من منطلق انه تواصل مع البيئة التي ظهر فيها. وفيما تؤكّد انها بنت نظرية تاريخانية علمية فواهما تاويل مفردات القرآن، تظل قاصرة عن تفسير كيف تجاوزت المفردات دلالتها البدويّة، وكيف خملت العرب وغيرهم من الامم إلى تبنّي الرسالة ونقلها للعالم.

تؤكد أنّ القرآن عربيّ الأصل تماماً، في ردّ على المستشرقين

تبني نظريّتها على موضوع صنعتْه بذاتها واسقطتْه على المصادر

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

قصّة

ابتسموا فلستم في عزاء

صورة الأُسرة

مانويل ريفاس

في البوم الصُّوَر، ثمّة صورة واحدة لأسرة فقط. الصورة الوحيدة التي نظهر فيها نحن الستّة: أبي وأمّي مع أولادهما الأربعة: الصبيّان والبنّتان. نبدو جميعاً في الصورة جادّين. فيها أيضاً نوع من عدم الثقة. التقطت الكاميرا ذلك التعبير بوضوح. حتّى اليوم، يمكن التماس ذبذبة تلهُّف للعدائيَّة في تلك الصورة، صورة الأسرة الرسميَّة، وصورة أسرة كثيرة الأفراد. احتجنا إليها، أنا وأختي الكبرى، للتقديم على منح دراسة جامعيّة. اتذكّر جيّداً ذلك اليوم المطير. هرب أبي من عمله كي يكون معنا في الصورة، وكان في عجلة من أمره. مسح شعره بيده إلى الخلف وبدا أملس. إنّها صورتنا الأسريّة الوحيدة ونحن مجتمعون. لدينا صور أخرى، قليلة، نظهر فيها نحن الستّة، لكن مع أشخاص آخرين تجمّعوا من أجل احتفال ما. أمّا تلك، فهي صورة الأسرة الوحيدة، وعلى الرّغم من ذلك ليست الصورة الأولى.

الصورة الأولى التقطوها لنا منذ سنوات عدّة. كان ذلك صيفاً في صباح يوم أحد في حدائق الريبنو. تحديداً بالقرب من منحوتة كونتيبتيون أريناك. يصعب عليّ نسيان ذاك المشهد، ولا سيّما المكان الأثيري مع بركة الأسماك المملوّنة، المسيّجة بسلاسل ضخمة، وبحضور صقر معدنيّ كبير. كان يوم عطلة رسميّة مليئاً بالأضواء. وكان لا بدّ من وجود موسيقى ونكهات مختلفة، إلّا أنّ ذاكرتي لا تُسعفني إلّا بتذكّر الأضواء. حمل الجميع أضواءً في يوم الأحد ذاك. ارتدت أمّي قبّعة صغيرة من الحرير المكشكش، هي التي بادرت حين رأت المصوّر أمامها: هيّا بنا لنتصوّر. وأخيراً تمكّنت أمّي من جمعنا كلّنا وحثّتنا على الوقوف أمام الكاميرا. من العار ألّا تكون لدينا صورة أسريّة لنا كلّنا. بهذا المعنى لم تكن الصورة مجرّد لحظة سعادة، بل مسؤوليّة أيضاً. قضيّة معلّقة مع القدر. اصطففنا. نظرة جانبيّة. مع ابتسامة صوب الكاميرا. اللمسة الأخيرة. الآن، انتباه.

بطاقة

Manuel Rivas صحافي وروائي إسباني من مواليد لاكورونيا في غاليسيا عام 1957. له عمود أسبوعي في صحيفة «البايس». حصل على العديد من الجوائز الأدبية. أبرزُها «جائزة الرواية الوطنية» عن روايته: «ماذا تريدينني يا حبيبتي؟» (1996). من بين رواياته الأخرى: «قلم النجّار» (1988)، و«الأصوات المرتعشة» (2012).

ستكون جاهزةً يوم الثلاثاء ظُهراً بكلّ تأكيد. جاء يوم الثلاثاء وذهبنا برفقة أمّي. لا، لم يذهب أبي معنا في تلك المهمّة. كان عنوان المصوّر في منطقة سوق سانتا لوثيا. وصلنا إلى شارع فرعيّ ضيّق، وتحقّقت أمّي من رقم البناء الموجود على الورقة، ومن ثمّ طرقت الباب. لا أحد. لم يفتح أحد. عادت وطرقت الباب بقوّة، ففتحت امرأة مسنّة دفّتي النافذة في المنزل المواجه وسألت أمّي: عمّن تبحثين؟ عن المصوّر يا سيّدة!

وأغلقت الجارةُ النافذة بصمت جنائزيّ.

عدنا بعد يومين أو ثلاثة أيّام. لم نجد المصوّر ولا أحداً آخر في المنزل. في أيّام الأحد، صارت أمّي في أثناء تنزّهها تراقب وتدقّق النظر في كلّ شخص يثبات، نظرنا إلى المصوّر. رجل بدين، غريض وطويل. راح يمسح جبهته الصمغيّة بمنديل، وبدا كأنّه يتحارب جدّاً أو قصير جدّاً، يصعب تحديد ذلك. حرّر ربطة عنقه وشدّها أكثر من مرّة. أخيراً استعدّ لالتقاط الصورة. ثبّت عدسة الكاميرا على عينه، وقدّم رجله اليُمنى إلى الأمام. انحنى قليلاً. أعادت إليه تلك الوضعيّة شيئاً من التناسق الهندسيّ. «ابتسموا فلستم في عزاء»، قال لنا.

ثمّ كتبَ عنوانه على ورقة صغيرة. بدا عدنا بعد يومين أو ثلاثة أيّام. لم نجد المصوّر ولا أحداً آخر في المنزل. في أيّام الأحد، صارت أمّي في أثناء تنزّهها تراقب وتدقّق النظر في كلّ شخص يحمل كاميرا. هذا رجل بدين، نعم! لكنّ الناس يتغيّرون. في أحد الأيّام رأته أمّي، أو اعتقدت أنّها رأته، بين الحشود المتجمّعة حول تومبولا دي لا كاريداد. نادته وركضت إليه فاتحة ممرّاً بين الحشود، غير أنّ الرجل السمين ركض بسرعة الضوء واختفى بين الحشود. في بعض الأحيان، حتّى الآن، أعتقد أنّني أراه عندما أرى شخصاً يمرّ من أمامي لابساً بدلة أو معطفاً. يخيّل إليّ أنّه المصوّر الضخم يمضي مسرعاً ويصل إلى بيته الحقيقيّ. يضع كاميرته المعطّلة ويفتح غرفة التحميض حيث تقبع الذكريات الذهبيّة لكلّ الصور التي لم يلتقطها. وهناك، نحن نقبع مبتسمين ومتّحدين كما لم نكن من قبل.

(ترجمة عن الإسبانية: جعفر العلوني)

مانويل ريفاس

متابعة

مكتبة الإسكندرية في انتظار أن تواكب المعرفةُ أبّهة المعمار

عقدان من الآمال المعلّقة

تضمّ المكتبة، التي مرّ عقدان على افتتاحها، رصيداً من الكتب قد لا تتوفّر عليه معظم مكتبات العالم، لكن بماذا تساهم في تطوير المعرفة؟

القاهرة ـ **سناء اميت**

في الثالث والعشرين من نيسان/ إبريل الماضي، مرّ عشرون عاماً على افتتاح «مكتبة الإسكندرية» في مقرّها الجديد الذي أريد له أن يكون استرجاعاً لواحدة من أعظم مكتبات العالم القديم. لكن هل حقّقت «مكتبة الإسكندرية» هذا الطموح خلال عقدين؟

حين افتتح المبنى، بأبّهته المعمارية التي نعرفها، مثل حدثاً عالمياً عن جدارة، وقد اختير اليوم العالمي للكتاب (23 نيسان/ إبريل من كل عام) موعداً للافتتاح ضماناً لمزيد من الإشعاع، وإن كان الافتتاح الحقيقي قد جرى في تشرين الأول/ أكتوبر 2002. وقد تداولت بالفعل وكالات الأنباء ونشرات الأخبار وصفحات المواقع صور المكتبة الجديدة، وبدا الأمر لكثيرين فاتحة لعصر ثقافي جديد في مصر والمنطقة العربية (لعلّ الأمر يشبه كثيراً ما نعيشه منذ أشهر من الدعاية لافتتاح المتحف المصري الكبير)، لكن العارف بكواليس الثقافة في مصر، أو في العالم العربي، يعلم أنّ المكتبة لم تكن منعطفاً كما رغب كثيرون.

صحيح أنها تقدّم خدمات جليلة للباحثين، وأنها تضمّ رصيداً مهمّاً من الكتب قد لا تتوفّر عليه معظم مكتبات العالم، كما تحتضن مجموعة من الفعاليات الثقافية وتقوّي عدداً من المؤسسات الفنية والإبداعية. غير أن الإشعاع أو تقديم الفائدة لا ينحصر في هذه الخدمات، والتي لم تكن تقدّمها «مكتبة الإسكندرية» القديمة غير أنّها هي التي ظلّت تحظى بمكان مرموق في مخيال البشرية، تستطيع مكتبة الإسكندرية الجديدة أن تدغدغه لكنها لا تقدر أن تحييه. ويعود ذلك إلى أن روح المكتبات هو المساهمة في تطوير المعرفة، بحفظها وإتاحتها وتوفير بيئة للناشطين في المجالات المعرفية والتشبيك بينهم. في هذا لا تستطيع «مكتبة الإسكندرية» غير تقديم الحد الأدنى، وهي في ذلك غير ملومة، فما هي إلا جزء من بيئة ثقافية أوسع، محكومة بكثير من الضمور المعرفي والبيروقراطية وقلّة الحيلة. بعد عشرين عاماً، لا تزال الثقافة في مصر، أو في العالم العربي، بعلم أنّ المكتبة لم تكن منعطفاً كما رغب كثيرون.

لا تزال الإسكندرية غير مستفيدة من مكتبتها كما ينبغي

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

من مكتبة الإسكندرية (Getty)

فعاليات

تتواصل، في قاعتَي **الخيام** و**آلجيريا** بالجزائر العاصمة، حتى يوم غدٍ الخميس، عروض **اسبوع الفيلم القصير**، والتي انطلقت قبل اسبوع. تتضمّن التظاهُرة أفلاما جزائرية حديثة لمخرجين شباب؛ من بينها: «طفل الجزائر» لـ حكيم طرايدية، و«شبشاق ماريكان» لـ آمال بليدي، و«سوف يعود» (الصورة)، لـ يوسف محساس.

عبد القادر، عنوان معرض توثيقي عن سيرة الامير عبد القادر الجزائري (1808 - 1883)، يحتضنه **متحف حضارات اوروبا والبحر الأبيض المتوسّط** في مدينة مرسيليا الفرنسية منذ السادس من الشهر الجاري، وحتّى الثاني والعشرين من آب/ اغسطس المقبل. يجمع المعرض قرابة 250 صورة ووثيقة تنتمي إلى مراحل مختلفة من حياة الامير، عدد منها يتاح له ان يُعرض لاوّل مرّة.

قناديل المدينة، عنوانُ تظاهُرة انطلقت يوم الاربعاء الماضي في فضاء **البرطال** الثقافي بمدينة قبلي القديمة، جنوب تونس، و تتواصل حتّى الثامن والعشرين من نيسان/ إبريل الجاري. تتضمّن التظاهُرة برنامجاً يجمعُ بين الحفلات الموسيقية والانشاد الصوفي، الى جانب عروض حكواتية وأُخرى موجّهة الى الاطفال.

تحت عنوان **ركام**، يتواصل في **قاعة صلاح طاهر** بـ **دار الاوبرا المصرية** في القاهرة، حتى غدٍ الخميس، معرضٌ للفنّانة المصرية **امنية هلال**. انطلق المعرض يوم السبت الماضي، وهو يضمّ قرابة ثلاثين قطعةً فنّية انجزتها هلال باستخدام خردوات وقطعٍ من الحديد والاسلاك المعدنية.